جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية / قسم التاريخ

دراسات عليا / تاريخ حديث

الحياة الثقافية في عهد السلطان محمد الثاني (الفاتح)

اسم التدريسي

ا.د. عواد إبراهيم خضر

1448هـ

2026م

أولاً: دور السلطان محمد الفاتح في بناء المدارس والاهتمام بالتعليم:

كانت المشروعات التعليمية التي أسسها السلطان محمد الفاتح تعبر عن رؤية واضحة تجاه مكانة العلم في بناء الدولة، إذ عمد إلى تنظيم المدارس وفق درجات علمية تبدأ من المراحل الأولية وصولاً إلى المدارس العليا التي كانت تُسمى (المدارس الثمانية)، وتقع بالقرب من مسجد الفاتح في إسطنبول، إذ حرص على أن تتولى التدريس فيها شخصيات علمية بارزة في الفقه والحديث والمنطق والفلسفة والرياضيات، وتشير بعض المصادر إلى أن الفاتح ألزم العلماء بتدريس مناهج محددة وبإجراء امتحانات دورية للطلاب، الأمر الذي شكل نقلة نوعية في انتظام التعليم ومركزيته، وتكشف الروايات المعاصرة لعهد السلطان محمد الفاتح عن اهتمامه بالمعرفة التطبيقية، لاسيما العلوم المرتبطة بالقوة العسكرية والإدارة، إذ كان السلطان متابعاً لجهود المهندسين في تطوير الأسلحة والمدافع، ويُروى أنه ناقش بنفسه خطط بناء المدفع العملاق الذي استخدم في حصار القسطنطينية، هذا السلوك لم يكن نتاج شغف شخصي فحسب، بل امتداداً لسياسة ثقافية تعتبر العلم وسيلة مباشرة لتعزيز الدولة، ويشير بعض المؤرخين إلى أن مجلس السلطان كان يضم مترجمين قادرين على قراءة النصوص اللاتينية واليونانية للاستفادة من الخبرة البيزنطية في الهندسة والجغرافيا البحرية.

وتُظهر الكتابات العثمانية اللاحقة أثر هذه السياسة الثقافية في تطور الفنون أيضاً، إذ شهدت إسطنبول حركة ازدهار في فنون الخط والزخرفة والتذهيب. وقد استقطب الفاتح عددًا من الخطاطين الذين تخرّجوا من مدارس الأناضول ووسط آسيا، إضافة إلى فنانين من أقاليم أخرى، وكان من نتائج ذلك إنتاج مصاحف ثمينة ونسخ علمية مزخرفة، بعضها لا يزال معروضاً في متاحف تركيا حتى اليوم. ويبدو أن هذه النهضة لم تكن معزولة، بل جاءت نتيجة لتوجيهات السلطان نفسه الذي كان يهوى الكتاب والفنون الرفيعة، ويَعتبر جمال النسخ والزخارف جزءاً من هيبة الدولة العثمانية ورمزاً لحضاريتها.

مع توسع الدولة العثمانية في البلقان، ظهرت الحاجة إلى إعداد علماء يجيدون لغات تلك المناطق، فأسس الفاتح مدراس خاصة تُعنى بتعليم اللغات السلافية واليونانية، من أجل إعداد مترجمين ودبلوماسيين قادرين على التفاوض مع الدول المجاورة، وأدت هذه السياسة إلى خلق طبقة جديدة من العلماء المتخصصين في اللغات الأوروبية الشرقية، ما منح الدولة قدرة أكبر على إدارة شؤون المناطق المفتوحة، وفتح آفاقاً جديدة للتبادل العلمي والثقافي، أما التعليم المتخصص فشهد تطوراً كبيراً، إذ ظهرت مدارس تهتم بالطب والصيدلة لاسيما في المدن الكبرى، واستفاد العثمانيون من الخبرة الطبية البيزنطية، وأدخلوا أساليب جديدة في الجراحة والعلاج بالأعشاب، وتشير الكتب الطبية في تلك المدة إلى ترجمة نصوص مهمة من اليونانية إلى العربية ومنها إلى التركية، وكانت هذه العملية تجري غالباً في مؤسسات علمية رسمية داخل إسطنبول، حيث توفر الدولة رواتب المترجمين وتخصص قاعات للمخطوطات والأدوات العلمية.

ثانياً: الترجمة الفنون:

يجمع المؤرخون على أن اهتمام السلطان محمد الفاتح بالترجمة كان من أبرز مظاهر التقدم الثقافي، إذ أمر بجلب عدد من العلماء الذين يتقنون العربية والفارسية واليونانية، وكُلفوا بترجمة كتب الفلسفة والطب والفلك، ومن أشهر الترجمات التي أنجزت في تلك المدة نسخ عربية وفارسية من كتب بيزنطية في الجغرافيا البحرية، هذه الترجمات كان لها أثر مباشر في بناء أسطول قوي، وفي تأسيس مكتب لإنتاج الخرائط البحرية الذي تطور لاحقاً على يد رائد البحارة العثمانيين بيري ريس، كما أن ازدهار حركة الترجمة في عصر الفاتح لم يقتصر على العلوم الطبيعية أو العسكرية، بل شمل التاريخ والأدب والفلسفة، فقد أُرسلت بعثات إلى الأناضول وإلى بعض المدن البيزنطية السابقة لجمع المخطوطات القديمة، ثم نُقلت إلى إسطنبول لتنظيمها وترجمتها. وتذكر بعض السجلات السلطانية أن الفاتح أمر بترجمة نصوص يونانية تتعلق بتاريخ الملوك والقياصرة، رغبة منه في فهم خصومه من خلال تاريخهم

وثقافتهم، وقد كان هذا الفهم الثقافي أحد أسباب نجاح محمد الفاتح في إدارة المدن المفتوحة دون اضطرابات كبيرة، لأنه أدرك طبيعة النظم الإدارية التي كان البيزنطيون يعملون بها، وطبّق بعض عناصرها في إدارة الدولة الجديدة.

أما في جانب الفنون، فقد منع السلطان محمد الفاتح بعض الممارسات التي رأى أنها خرافية، لكنه شجع الفنون التي تُعلي من شأن الدولة، مثل الموسيقى العسكرية التي كانت تُستخدم لرفع معنويات الجيش، وحافظ على بعض التقاليد الفنية البيزنطية التي لم تتعارض مع الشريعة، وهو ما يكشف عن انفتاح ثقافي محسوب، قادر على الاستفادة مما هو قائم من تراث دون تبنٍ كامل له، كما بدأ في عهده تنظيم الحرفيين ضمن (الطوائف)، وهي نظام مهني وثقافي قوي أسهم في تطوير الصناعات التقليدية وصياغة علاقة إيجابية بين السوق والدولة.

وعلى الرغم من أن عهد الفاتح ارتبط بالقوة العسكرية، فإن الفنون الراقية كانت جزءًا أصيلًا من ثقافة البلاط. فقد شجّع السلطان فنون التصوير (المنمنمات) ضمن حدود الشريعة، وسمح باستقدام رسامين من إيران وآسيا الوسطى، وكانت أعمالهم تُستخدم لتوثيق الأحداث التاريخية أو لوصف المدن والألبسة والعادات. كما تطور في عهده فن العمارة الطرازية التي جمعت بين الأنماط السلجوقية والبيزنطية، ليظهر ما عرف لاحقًا بـ(الطراز العثماني الكلاسيكي)، ويعد بناء مجمع الفاتح أكبر مثال على هذا النضج الفني الذي يجمع بين الجمال والوظيفة، إذ ضم مدارس ومستشفى ومكتبة وموقعاً للتدريس، فكان مركزًا ثقافيًا بالمعنى الكامل للكلمة.

وشهدت إسطنبول في زمن محمد الفاتح نشأة جيل جديد من الموسيقيين، الذين طوروا الأساليب الموسيقية التركية وأنشؤوا المقامات التي أصبحت لاحقًا أساسًا للموسيقى العثمانية الكلاسيكية. وكان للجيش نصيب من هذا التطور، إذ تطورت الموسيقى العسكرية (المهتر) بشكل كبير، وأصبحت رمزاً للقوة العثمانية، تُستخدم في الحروب وفي الاحتفالات الرسمية، وكانت هذه الفرق الموسيقية تُدرب داخل

مؤسسات خاصة، تشرف عليها الدولة مباشرة، مما جعل الفن جزءًا من النظام العسكري والثقافي معاً.

ثالثاً: الاهتمام بالأوقاف والعلماء:

امتد تأثير محمد الفاتح على الحياة الثقافية ليشمل تنظيم الوقف بوصفه أداة رئيسة لدعم التعليم، فقد أنشأ مؤسسات وقفية كبيرة مخصصة للمدارس والمكتبات والمساجد، ووضعت هذه الأوقاف شروطًا دقيقة لضمان استمرار الموارد، مثل تحديد رواتب المدرّسين والطلاب والخدم، وتحديد نسب العائدات التي تُصرف على صيانة الأبنية، وقد حفظت هذه الوقفيات كثيراً من المدارس من الاندثار، وأتاحت للطلبة الفقراء فرصة التعليم والإقامة والغذاء، وتشير بعض السجلات العثمانية إلى أن عدد المؤسسات الوقفية التي أُنشئت في عهد الفاتح تجاوز مئات الوحدات، ما يعكس أن الوقف لم يكن مجرد واجهة خيرية، بل سياسة ثقافية واعية تهدف إلى ضمان استدامة المؤسسات التعليمية، ومن الظواهر اللافتة في الحياة الثقافية في زمن محمد الفاتح تلك العلاقة المتينة بين العلماء والسلطة، إذ كان السلطان يحرص على حضور المجالس العلمية التي تُعقد في قصره، وكان يُناقش العلماء في المسائل العقدية والفقهية والفلسفية، وهو ما شكل نوعاً من (الرقابة العلمية) لصالح الدولة، لاسيما في مواجهة بعض الأفكار المنقولة من الفلسفة اليونانية، وقد سجلت كتب التاريخ أن السلطان طلب من العلماء إعداد رسائل تبين رأي الشريعة في بعض المسائل الفلسفية، ما يعكس محاولة منه لضبط الخطاب الديني والفلسفي معاً.

كانت الحياة الثقافية في عهد السلطان محمد الفاتح مرتبطة ارتباطًا وثيقاً ببناء جهاز الدولة الإداري، إذ أدرك السلطان محمد الفاتح أن ازدهار المعرفة شرط أساسي لقيام إدارة قوية قادرة على إدارة إمبراطورية مترامية الأطراف، وقد عمل على استقطاب خريجي المدارس العليا إلى الوظائف الحكومية، وجعل من التفوق العلمي معياراً للتدرج في سلك القضاء والفتوى، وقد ظهر في عهده عدد من القضاة والمفتين الذين

ساهموا في تطوير الفقه العملي، وتركوا آثاراً واضحة في التشريع العثماني اللاحق، ومن أبرزهم (المولى خسرو) الذي عُرف بمكانته العلمية الرفيعة، كما كان له دور في صياغة بعض الأحكام التي أصبحت جزءاً من النظام القضائي العثماني لقرون طويلة.

رابعاً: تنظيم مدينة القسطنطينية في الجانب الثقافي:

عقب فتح القسطنطينية، بدأ السلطان محمد الفاتح مشروع إعادة تشكيل المدينة ثقافياً، إذ أمر بإعادة ترميم عدد من الكنائس والقصور وتحويل بعضها إلى مدارس أو مكتبات، كما أصدر مراسيم تسمح للسكان الأرثوذكس بممارسة شعائرهم تحت حماية الدولة، مع الاحتفاظ ببطاركة تابعين للسلطة العثمانية، ونتج عن ذلك بيئة ثقافية متنوعة تداخل فيها التراث البيزنطي والإسلامي، وكانت هذه الخصوصية الثقافية عنصراً مهماً في صناعة (هوية إسطنبول) الجديدة التي أصبحت مركزاً سياسياً وثقافياً للعالم العثماني، وتُعد الإسطنبول الفاتحية نموذجاً لمدينة أعادها السلطان إلى الحياة بعد أن كانت شبه خالية نتيجة الحروب الطويلة، فبادر إلى استقدام السكان من الأناضول والبلقان ومن الداخل البيزنطي أيضا، بهدف تشكيل نسيج حضاري متنوع، وقد ساعد ذلك على خلق بيئة ثقافية تشترك فيها عدة لغات، منها التركية والعربية واليونانية والأرمنية والسلافية. وقد انعكس هذا التنوع على المدارس والأسواق ودور الصناعة، إذ كانت كل جماعة تحافظ على شيء من تراثها الفني والمعرفي، مع اندماج تدريجي في الثقافة الرسمية التي كانت اللغة التركية العثمانية عمادها الأساسي.

خامساً: دور العلماء العرب في الحياة الثقافية في عهد السلطان محمد الفاتح:

برز في عهد محمد الفاتح اهتمام خاص بالعلماء العرب في تعزيز الثقافة العثمانية، إذ كان السلطان يطلب العلماء من حلب ودمشق والقاهرة، وأتاح لهم رواتب عالية ومناصب مرموقة داخل المدارس. وكان الهدف من ذلك الاستفادة من التراث العربي

في العلوم الشرعية واللغوية والمنطقية، بما يُعد محاولة واعية لتعويض النقص الذي كانت تعاني منه الدولة الفتية في العلوم الإسلامية الدقيقة. وقد أثمر هذا التعاون عن نشر عدد كبير من الكتب العربية في إسطنبول، وبعضها نُسخ بخطوط جميلة واحتفظت به المكتبات السلطانية. وتذكر المصادر أن الفاتح أكرم العلماء العرب إلى حد كبير، حتى إن بعضهم أصبح من المقرّبين في مجلسه الخاص.

وشهدت كذلك المكتبات السلطانية توسعًا ملحوظًا في عهد محمد الفاتح، حيث جرى جمع آلاف المخطوطات من الأناضول ومن المدن البيزنطية المفتوحة. وقد احتوت هذه المكتبات على كتب في الفلسفة والطب والهندسة والتاريخ، وليس فقط العلوم الشرعية، الأمر الذي يعكس شمول السياسة الثقافية السلطانية واتساع أفقها. وكانت هذه المكتبات توفّر خدمات للعلماء والطلاب، مثل استنساخ الكتب وإعارتها، وهو ما سمح بانتشار المعرفة بين فئات لم تكن قادرة على شراء المخطوطات التي كانت باهظة الثمن آنذاك.

سادساً: الأدب:

كان للأدب حضور واضح في الحياة الثقافية، إذ ازدهرت الكتابة باللغة العثمانية، وبرز شعراء البلاط الذين كانوا يمدحون السلطان أو يصفون الفتوحات. كما ظهرت كتابات فلسفية وفقهية بلغة تميل إلى التأثر بالتركية والفارسية والعربية جميعًا، مما كوّن ما يسمى بالأدب العثماني المبكر. وقد مثّل الشعراء دورًا مهمًا في إضفاء بعد ثقافي على الحياة السياسية، إذ كانت قصائدهم تُتلى في الاحتفالات الرسمية، وتسعى إلى رفع مكانة السلطان وتخليد انتصاراته، وهذا منح الأدب وظيفة سياسية وثقافية في آن واحد.

ومن الجوانب المهمة أيضًا نظام الاحتفالات الدينية والثقافية التي انتشرت في المدن الكبرى، وكانت تُنظّم بمشاركة العلماء والحرفيين والجنود. وتُظهر سجلات الاحتفالات أن السلطان كان يولي أهمية كبيرة لهذه الطقوس، لأنها كانت وسيلة

لتعزيز ولاء السكان، ولغرس الشعور بالانتماء إلى الدولة. وكانت تُقام عروض فنية ومَدائح نبوية ومسيرات للطوائف الحرفية، وهو ما صنع تقليدًا ثقافيًا ظلّ مستمرًا في إسطنبول لقرون بعد عهد الفاتح.

سابعاً: العلوم العقلية:

شهد عصر السلطان محمد الفاتح اهتمامًا متزايدًا بالعلوم العقلية، إذ أدرك السلطان أن النهضة الحقيقية لا يمكن أن تقوم على الجانب الديني وحده، بل لا بد من موازنة بين علوم الشريعة وعلوم الفلسفة والمنطق والرياضيات. وقد احتفظت كتب التراجم بقصص عديدة عن مناظرات فكرية كانت تدور في مجلس السلطان، شارك فيها فلاسفة من الأناضول وعلماء من حلب وبلاد ما وراء النهر. وقد طلب الفاتح من المولى علي القوشجي، العالم الرياضي الشهير، أن يعد دروسًا في الهيئة وعلم الفلك، وحظي القوشجي بمكانة عالية، حتى أصبح أحد أهم رموز التطور العلمي الذي شهدته إسطنبول في زمن الفاتح. ويُروى أنّ السلطان كان يتابع بنفسه بعض دروس القوشجي، ويُناقشه في مسائل فلكية دقيقة، مما يعكس مستوى رفيعًا من الوعي العلمي لدى رأس الدولة نفسه، وحرص محمد الفاتح على تعميق صلة الدولة بالتراث الإسلامي في مجالات القضاء والتفسير والحديث، وعرف عنه أنه كان يطلب من العلماء إعداد شروح موسعة لبعض الكتب الأساسية، مثل (الهداية) في الفقه الحنفي و(الكشاف) في التفسير، وأدى هذا إلى انتشار المدارس الحنفية في بلاد الروم، وترسّخ المذهب الحنفي كمذهب رسمي للدولة، كما أصدر الفاتح أوامر تُلزم القضاة باتباع اجتهادات معينة لضمان وحدة النظام القضائي، ما جعل الثقافة الدينية تمتزج مباشرة بالبنية القانونية للدولة العثمانية، وقد وفّرت هذه السياسة بيئة علمية مستقرة، يَعمل فيها العلماء ضمن إطار واضح من السلطة الشرعية والإدارية.

وكان للطرق الصوفية حضور واسع في الثقافة اليومية لعصر الفاتح، إذ لعبت الطرق النقشبندية والبكتاشية والمولوية دوراً مؤثراً في نشر التعليم الروحي، وفي دعم

الاستقرار الاجتماعي عبر الزوايا التي كانت تُعد مراكز للعلم والخدمة وأدرك السلطان أهمية هذه المؤسسات، فقدم لها الدعم المادي، لكنه فرض عليها رقابة دينية لضبط بعض الممارسات التي كانت تتعارض مع الشريعة، وامتاز عصر الفاتح بأن الدولة لم تعادِ التصوف، بل دمجته ضمن منظومتها الثقافية، باعتباره وسيلة مؤثرة للوصول إلى شرائح واسعة من المجتمع، لاسيما في الأناضول والبلقان، وتذكر المصادر أن مجالس الذكر والإنشاد الصوفي كانت تُقام بحضور كبار رجالات الدولة، ما جعلها جزءًا من المشهد الثقافي العام وليس مجرد نشاط ديني محدود.

ثامناً: تعليم المرأة:

أما تعليم المرأة في عهد الفاتح، فقد كان محدودًا مقارنة بالرجل، لكنه كان موجودًا ضمن إطار اجتماعي مقبول، حيث كانت بعض المدارس الملحقة بالمساجد تستقبل الفتيات لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن. كما كانت بعض الزوايا الصوفية توفر دروسًا للنساء في الفقه والسلوك الروحي، ورغم ضآلة هذه المظاهر، فإنها تُعدّ خطوة ثقافية مهمّة مهدت لظهور تعليم نسائي أكثر وضوحًا في القرون اللاحقة. وتشير بعض تراجم النساء العثمانيات إلى وجود شاعرات وخطاطات في القرن الخامس عشر، ما يدل على أن الثقافة العثمانية في عهد الفاتح لم تكن محصورة في الرجال فقط.